من دفتر الذاكرة

بقلم / عبد الخالق فاروق



غالبا ما تتوه وتتوارى عن الذاكرة ، تلك الفترة الوسيطة من عمر الإنسان ، أنها السنوات الثلاث الممتدة من العام الثانى عشر وحتى الخامس عشر تقريبا ، ولا يتبقى من سماتها المتقلبة سوى تلك النقاط الفارقة بالسلب أو بالإيجاب فى حياتنا الممتدة بعد ذلك .

فى حياتى كنت دائما على موعد مع الحرمان .. كابوس ظل يطاردنى من بواكير الصبا وحتى غروب الشباب ، وكانت التجربة الخاصة تتشابك دائما مع شوك البرية ، ونبات الصبار لا تطرح سوى الشوك الدامى ، ومرارة اللهفة بلا نهاية .

كان موعدى فى أعوامى الثلاث من الدراسة الثانوية " بمدرسة بنبا قادن " مع معترك السياسة ، وتأسيس ربما أول تنظيم سرى بين طلبة المدارس الثانوية فى مصر .

أتذكر ليالى أكتوبر الشتوية عام ١٩٧٣ ، كنت وقتئذ فى العام الدراسى الثانى من تلك المرحلة الثانوية ، عندما اندلعت نيران الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة ، كنا نبحث عن دور دون جدوى ، فبيانات المذياع كانت تحمل كل ساعة ، بل كل لحظة نصرا جديدا ، وبرغم الإحساس الطاغى الذى ساد بين المصريين بالنجاح ، فان مشاعر للتوجس والقلق ظلت تحبط بظلالها بعض جوانب هذا الإحساس ، فكبتت كل ما فيه من لذة الانطلاق والضحك بصوت مسموع . فما زلنا أسرى عقدة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ .

يوم الاثنين ، كنت ما زلت فى العاشرة من عمرى ، حين ترامت إلى أذني صفارات الإنذار ، بغارة جوية ، بينما لهيب الخطابات النارية من إذاعة " صوت العرب " عن سقوط عشرات الطائرات الإسرائيلية المغيرة ، وبعدها بساعات ، تكشف للناس حجم الكارثة ، وذاق الجميع مرارة الهزيمة والانكسار القومى .

والآن .. ماذا نفعل ، نريد أن نشارك ، فلم يكن الشارع المصرى بالفعل مهيأ لعمليات حربية طويلة الأجل ، لذا فقد ظلت منظمات الدفاع المنى الملحقة بالتنظيم السياسى الوحيد فى ذلك الوقت (الاتحاد الاشتراكى العربى) ، مجرد منظمات شكلية ، دون فاعلية ، ودون إعداد ، اللهم إلا بالنداء على السكان من أجل إطفاء الأنوار وقت سماع صفارة الإنذار بغارة جوية ..!!

ولم تدم تلك الفرحة المكبوتة طويلا ، فما هى إلا عشرة أيام ، وبدأت البيانات العسكرية تذيع أنباء الاختراق الإسرائيلي " المحدود " للضفة الغربية لقناة السويس ، وبعدها بقليل تبين أن الإسماعيلية والسويس أصبحتا محاصرتين ؟؟

تجمع عدد من الشباب – وكنت ربما أصغرهم سنا – حول شاب بالحى كان طالبا فى كلية الطب البيطرى ، مطالبين بالالتحاق بالمدينة المحاصرة ، وتقابلنا مع قيادات الاتحاد الاشتراكى بالحى ، وجرت مناورات متبادلة بين هذا الشاب ، وبين مسئولى الاتحاد الاشتراكى ، دارت كلها حول أتفه القضايا فى وقت كان الوطن ذاته يتعرض للحصار والنكسة من جديد .

فلكى يتم تدريبنا ، وإلحاقنا بمدينة السويس المحاصرة ، ينبغى أن ننضم أولا إلى التنظيم السياسى الحكومى هذا .. يا لسخريات الأقدار .

علمتنى هذه التجربة البسيطة، أن ابتعد دائما عن لصوص السلطة وحواريها والمنتفعون منها .. وغذت بداخلى أحساس بالانفصال عن هؤلاء والرغبة فى العمل المستقل .

وجرت بعد الحرب مياه كثيرة .. أصبح بعدها كل شيء مطروحا فى سوق عكاظ ، مبادىء ثورة يوليو ، مقررات الخرطوم ، دماء الشهداء ، كان عصر " هنرى كسينجر " قد بدأ فى المنطقة العربية .

جاء " كسينجر " ، وبدأ زمن الخروج .. خروج هيكل من الأهرام، وكنت من أشد المعجبين به وبكتاباته، وخرج " مصطفى أمين " من السجن وعاد أخيه " على أمين " من منفاه الإختيارى، وتقلدا أرفع المناصب (رئاسة تحرير الأهرام) ، وخرجت حملة الهجوم والتشويه الضارى ضد " جمال عبد الناصر " ، وكان حتى ذلك الحين رمزا من رموز جيلنا وبطلا قوميا تفتحت مداركنا عليه وهو ملء البصر والفؤاد .

ومع هذا الخروج من الجلد ، بزغت فى التوازنات المؤقتة جريدة " الطلاب " لسان حال اتحاد طلاب الجامعات المصرية الذى كان يهيمن عليه الطلبة الناصريون .

ومنها بدأ أسمى يظهر على بعض المقالات البسيطة المحتوى ، والعميقة الأثر فى شخصيتى وكيانى وهيبتى بين زملائى بالمدرسة الثانوية .

وكانت لقاءات " ناصر" الفكرية بجامعة عين شمس فى صيف كل عام ، أحد المنتديات السياسية الهامة التى برزت إلى السطح بعد عام ١٩٧٣ ، وساهمت بدور فى مقاومة اتجاهات الحكم " الساداتى" ، ومن خلالها نضج تفكيرى ، وغيرى من الشباب فى مناقشة القضايا العامة .

وخلال تلك المرحلة التى سبقت انتفاضة ١٨ و١٩ يناير عام ١٩٧٧ ، ظل الرئيس السادات حريصا على عدم الصدام مع الشباب " الناصرى " على أمل احتوائه ، وهكذا دفع الرجل بعدد ليس بقليل من كبار المسئولين لحضور تلك المؤتمرات السياسية ، ومناقشة الطلاب المشاركين فيها فى القضايا العامة المطروحة ، وكان باديا طوال الوقت بالنسبة لنا نحن الشباب ، أن النظام ورجاله يخسرون كل يوم أمام وجهات نظر وانتقادات الطلبة الجامعيين ، وبهذا أصبحت الجامعة بالنسبة لى " قبلة " فكرية وسياسية وطموحا ينبغى أن أصل إليه .

كان العام الدراسى قد بدأ متأخرا بعض الشيء عام ١٩٧٤ ، وكان من المخطط فى لقاء " ناصر الفكرى " أن تخرج مسيرة من الجامعة فى ذكرى ميلاد السابع والخمسين للزعيم الراحل " جمال عبد الناصر " فى الخامس عشر من يناير عام ١٩٧٥ ، وكنت قد عزمت أمرى ، على أن نشارك نحن طلبة " مدرسة بنبا قادن الثانوية " بالسيدة زينب بهذه المناسبة ، من خلال دفع أكبر

عدد من طلبة المدرسة للخروج الجماعى المنظم إلى الشارع والالتحام مع مسيرة طلبة جامعة عين شمس .

لذا فقد نشطت جهودى منذ صيف ١٩٧٤ ، لتأسيس مجموعة عمل من أصدقائي وزملائي بالمدرسة الثانوية ، وأنضم إلينا أحد عمال مصنع الحديد والصلب فى حلوان ، وبالفعل كللت هذه الجهود بالنجاح ، وفى خريف هذا العام (نوفمبر ١٩٧٤) كان عددنا قد بلغ ستة أفراد ، فأعددنا منشورا سريا ضمناه عدد من التساؤلات وعنوناه " لماذا ؟ " .

وشرعنا على الفور فى نسخ مئات النسخ بواسطة " أوراق الكربون " بأيدينا ، وفى أحدى الليالى المقمرة ، قمنا بلصقه على كثير من المدارس الثانوية بمنطقتى السيدة زينب وجاردن سيتى .

كان من بين المجموعة طالب يدعى " رأفت " سارع بعد فترة بإبلاغ وكيل المدرسة بما انتوينا عمله فى صباح الخامس عشر من يناير ، ويومها عرفت لأول مرة فى حياتى السلطة وجهاز أمنها وجها لوجه ، امتلأت المنطقة يومئذ بالعشرات من المخبرين وضباط الشرطة ، وحضر إلى المدرسة أحد ضباط جهاز " مباحث أمن الدولة " ، وحوصرت المدرسة تماما ، وأجبر الطلبة على الدخول إلى المدرسة ، وجاءني أحد الزملاء وأخبرنى بما كان يجرى فى المدرسة ، وقررت الهروب وعدم الذهاب إلى المدرسة فى هذا الصباح لما أعرفه من احتمالات القبض على ، ذهبت وزميلى (عادل) إلى جامعة " عين شمس " واشتركنا فى المسيرة الطلابية المتجهة إلى قبر الرئيس الراحل " جمال عبد الناصر " ، وسط حراسة مشددة من جانب الشرطة .

وعندما طوى النهار صفحته ، عدت متسللا إلى منزلى ، ووجدت أبى فى إنتظارى ، كانت ترتسم على وجهه علامات لم أستطع أن أحدد معناها ، هل كانت غضبا ؟ هل كانت فرحا ؟

كل ما أتذكره ، أنه أخذنى وأجلسنى بجانبه ، وكانت مقالتي اللتين سبق نشرهما فى جريدة " صوت الطلاب " قد أشعرته وقتها ببعض الفخر بابنه السياسى ، لكن الآن يبدو أن ضريبة هذا الطريق قاسية بالنسبة إليه وربما لى .

أخذ يربت على ظهرى ، وأخبرنى بما جرى ، لقد جاءه اليوم ، من يستدعيه إلى مبنى مباحث أمن الدولة بلاظوغلى ، ذهب إليهم بزيه الرسمى كمساعد بالقوات المسلحة (صول) ، وعرف هناك ما كنت أنتويه وزملائى ، وأطلعوه على ملف شخصى قد تم إعداده لى ، وهكذا أصبح لى ملف مشبوه سياسى فى مباحث أمن الدولة ..!!

نشرت بجريدة العربى الناصرى بتاريخ ٢٠١١/٨/١٤